اصل الحياة

لمصطفى عراد

ما لسرّ الحياةِ ظلَّ مُعمَّى بين هذي العلومِ ذاتِ الضياء؟
أتراها من الطبيعة أمْ ما ذا تُرانا مِنْ نسلِ هذا الهباء؟
ما الذي كانَ للطبيعة أمّا كيف صار الهباءُ ذا إحياء؟

قال لي بلبل على الغصن يشدو في جمال الربيع سرّ الحياةِ
بسمة الزهرِ للملاحظ تبدو بنشوء الحياةِ قبل الممات (١)
إنّ هذا الربيع جاءك يعدو فتمتّعْ فأنتَ مثل النباتِ

بلبلَ الروض ، انتَ سكرانُ من أنْـ ـوان زهرٍ أريجُهُ فوّاحُ
انني ما عَنَ الخمائل اسألْ لا ولا شافني بها القدّاح (٢)
انت ترجو دفع الشتاء ودرأ الـ ـحزنِ منهُ فسبكَ الافراحُ

قال هلاّ شُغلتَ عن بحث سرّ بمناه الحياةِ يا انسانُ !
تتعبُ العقلَ بينَ دَرْسٍ وخبرٍ واضطراب يثيرُه البرهانُ !
يا بني آدمٍ شُغفتمْ بأمرٍ كلُّ ما فيه انهُ خسرانُ

قلتُ للزهرةِ المفيضةِ حُسناً منْ أسالَ الحياةَ في الأشجار؟
من كسا هذه الوُريقات لوناً مستمدّاً من ريعك البسّار؟
ولماذا تصوّرين أحُزناً ام بحكمٍ مِنْ دَهرك القهّار؟

قالت الزهرةُ الخجولُ : حياتي ومماتي سرّان مكنونان
أتغذّى من الثرى والرقات وبنشق الهواء أقضي زماني

---

(١) هذه هي الفكرة الفلسفية (٢) القداح نور النبات قبل تفتحه ويطلق في العراق على نور الليمون والنارنج ونوعها

أرتوي مثلكم بماء فآتي بجمال محبَّبٍ فتّانِ

قلتُ يا زهرةَ الحديقةِ طيبي انّ عمر الزهورِ جدُّ قصيرِ
وأطلّي من فوق غصنٍ رطيبٍ وامنحينا الأريجَ قبلَ المصيرِ
انّ سرَّ الحياةِ جدُّ غريبٍ فاهنئي واتركي غريبَ الامورِ

***

ضاقت بي الحالُ حتى صرتُ مبتدعا وطالما كنتُ مبقاناً ومُتّبعا
هي الحقيقة تحييني فتبعثني من عالم الجهل حتى أهجر الورعا
اريدُ بالنفس خيراً غير انّ لها شيطانَ جهلٍ اذا ارشدتها امتنعا
يغور فكري ببحر الشك مضطرباً يكابد الهولَ والحيرات والجزعا
قد أعجز العالمُ الاذهانَ فابتدعتْ ما لو يطورُ به ذو غفلةٍ قنعا
كل الامور على عبثٍ تدلّ فلا يغرُّك ذو كلمٍ في غيهِ ارتفعا
فالموتُ والفقرُ والافسادُ بارهةٌ انّ التمدن من وحشيةٍ طلعا
وحاجة الحيّ للاغذاء معربةٌ ان الحياة ثرى إن أمرها اجتمعا
وعند العذول اعتراضات ولائمةٌ[1] فانْ طلبتَ اليهِ حجةً فزعا
وقد تشعبت الاديانُ واختلفتْ وامرها في جدالات الورى سطعا
كل يقول أنا الماتي على سنَنٍ يهدي الالهُ اليهِ كلَّ من صنعا

***

وسألتُ المياهَ في الروض تجري كثير الدماء في الاجساد
قلتُ : يا ماء انتِ كاشفُ أمري أنت مأوى الحياة في الآباد
بنشوء الحياة هل أنت تدري هل لنشوء الحياة من ذا الجماد ؟

قال لي الماء : كلّ حيّ وليدي ووليدُ الهواء في كلّ حال
لستثير الحياة بالتوحيد ونُصير المحالَ غيرَ محال
هل وجدتَ الحياة دون وجودي ام وجدتَ الهواء من تلك خالي ؟

سرّ شيخ مقوّسٌ ذو أناةٍ تحذ الدهر ظهره قوسَ وعْظِ

(١) هذا الشطر للكامل بن أبي الفتح

قلتُ يا شيخُ مَمَّ أصلُ الحياةِ فلقد كدتُ في الضلالة أمضي
أنت ذو خبرةٍ قريبُ المأتى كيف فكّرتَ ؟ قال اني لأقضي

***

قد حيّر الكونُ أذهانَ الورى جُمَعا قال تفكّر ذو عقلٍ بهِ جزعا
مُعَقّدٌ منذ رأى الانسانُ صورتهُ من ذا رأى القمر السيّار اذ طلعا
شمسٌ ونارٌ وسيّارٌ على دأبٍ النار تحرق والسيارُ قد دُفعا
ما الجذبُ ما الدفع ما الدنيا وخالقها أضحى الجوابُ على الانسانِ ممتنعا
هذا يقول وهذا منكرٌ أبداً حرنا فلسنا نرى الاّ امرأً فزعا
أما الدليلُ فلا عينٌ ولا أثرٌ وكل حزب بما قد ناله قنعا
إنْ قلت ماذا يُرى الانسانَ منهجهُ من الهدى قبل : ان الدين قد وَزَعا
ما الدينُ يا قومُ ان الدينَ مكتسبٌ وظالما من جدالات الحجى ارتدعا
والعلم والدين في التحليل ما اتفقا والنفس والعقل في المقصود ما اجتمعا
ليس الحياةُ سوى سرٍ تكنّفهُ مغالقُ الغيبِ لم يُكشف ولا سُمِعَا
والدينُ يعجز عن تبيان منشئها والعقلُ ساعٍ الى التبيان ما رجعا

***

قلتُ : ياشيخُ قد كفرتَ فكفّرْ عن خطاياكَ واتبع الرحمانا
إنما الدينُ عن حياتكَ يخبرْ كلُّ حيٍّ من الماءِ استبانا
ذاكَ شيء تعالموهُ فذكّرْ انّ ذكراكَ تنفعُ الأديانا

قال ما زلتُ في الضلالِ أهيمُ كيف صار الاديبُ حيّاً سويّا ؟
انّ ارضاً قد ظلّ فيها الجحيمُ كيفَ تحيا الحياةُ فيها مليّا
انّ كونَ الحياة فيها قديمُ وكذا النارُ أنشئتْ كيمويّا

قلتُ : يا شيخُ ذاكَ فكري فمن لي بنصيرٍ يذيعُ هذا المقالا
هذه الارضُ حيّة قبلَ كلّ ذي اشتعال فهل تجيب سؤالا ؟
كيف هذي الحياةُ كانت فقُل لي فلقد صار كل أمري ضلالا ؟